المحاضرة الثامنة

المنهج التاريخي:

يقوم المنهج التاريخي على دراسة الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية للعصر الذي ينتمي اليه الادب، ويتخذ منها وسيلة او طريقاً لفهم الادب وتفسير خصائصه واستجلاء كوامنه وغوامضه، لان اتباع هذا المنهج يؤمن بان الاديب ابن بيئته وزمانه، والادب نتاج ظروف سياسية واجتماعية يتأثر بها ويؤثر فيها، بعبارة اخرى يعني المتهج التاريخي اساساً بدراسة العوامل المؤثرة في الادب وصلته بزمانه وعصره، (فمعرفة التاريخ السياسي والاجتماعي لازمة لفهم الادب وتفسيره، وكثيرا ما يستحيل فهم نص ادبي قبل دراسة تاريخية عريضة، والكتب صدى لما حولها من امور، ونحن معرضون للخطأ في فهم وتقدير اراء الادباء واخيلتهم مالم نلاحظ صلتهم بعصورهم، واذا كان الاديب ثمرة بيئية وعصره، فقد لا يكون نابغة او عبقرياً لو تقدم عصره او تأخر عنه مادامت عوامل البيئة قد وجهته(.

للتاريخية معنيان عام وخاص. أما العام فيعني ان ننظر الى الفرد في علاقاته بالتطور البشري، والى الادب والحركات الادبية تبعاً للتطور الاجتماعي والسياسي والديني، والى الادب والحركات الادبية تبعاً للتطور الاجتماعي والسياسي والديني، ويرتبط هذا المعنى للتاريخية بالفلسفة اكثر منه بالأدب والنقد، وأما الخاص فيعني ان يرتبط الحدث بزمن، ومن ثم تقسيم الادب الى عصور وصفات كل ادب من كل عصر وعلاقة هذه الصفات بالصفة الغالبة للعصر في منحاه السياسي الغالب، وهذا المعنى هو المقصود هنا من (التاريخي).

إن (المنهج التاريخي في النقد–شأن اي منهج – حساس، اذا فقد فيه صاحبه توازنه زلت به قدمه واختل ميزانه، وصار مؤرخا او جماعة، وحكمه العصر بمقياسه وحكمه، وصار النص الادبي لديه مادة للتاريخ، ولم يصر التاريخ مادة للنقد، ويقتضي هذا ان يحدد الناقد– منذ البداية– علاقته بالتاريخ: هو ناقد له المؤهلات الازمة، صميم عمله النص الادبي بما فيه من حياة العواطف والاخلية، وهو يستعين بتاريخ العصر ونظمه السائدة على استجلاء النص الادبي، وادراك ما خبأه الزمن وراء حروفه والعلم بما تضمن– او اشاره اليه– من وقائع واحداث ومواقع واعلام، وتحديد ما كان لألفاظه ومصطلحاته من دلالات خاصه(.

ويعد الناقد الفرنسي تيب من النقاد الاوائل الذين استخدموا المنهج التاريخي في دراسة الادب، فقد ذهب الى وضع الاثر الفني في مجموعة (يرتبط بها الاثر وتفسير هي الاثر(والمجموعة هي انتاج الفنان نفسه والمجموعة الفنية التي ينتمي اليها والمجتمع الذي انتجها، من هنا جاءت هذه القاعدة (لكي تفهم اثراً فنياً او فناناً او مجموعة من الفنانين، فلابد من ان تتصور بدقة الحالة الفكرية والاخلاقية العامة التي ينتسب اليها الاثر او الفنان او جماعة الفنانين، فهاهنا يكمن تفسير الاخير، وهاهنا يكمن السبب الاولي

الـذي يحـدد مـا سـواه(، وعنـد تـين ان الادب يفهـم ويفسـر فـي ضـوء عناصـر ثلاثـة هـي الجـنس والبيئـة والعصـر، وقصـد بـالجنس الصـفات التـي يرتهـا الاديـب وتـؤثر فيـه، والعصـر هـو الاحـداث السياسـية والاجتماعيـة التـي تكـون طابعـاً عامـاً يتـرك اثـاراً عظيمـة فـي أدب الاديـب، والبيئـة هـي البيئـة الجغرافيـة التـي يعـيش فيهـا الاديـب وتـؤثر فيـه، أمـا مـا يخـص الادب والنقـد العربـي، فيعـد طـه حسـين ابـرز مـن اسـتخدم هـذا المـنهج فـي دراسـاته عـن الادب العربـي القـديم مثـل (حـديث الاربعـاء) و (تجديـد ذكـرى ابـي العـلاء)، ومما جاء فيه (لـيس الغـرض فـي هـذا الكتـاب ان نصـف حيـاة ابـر العـلاء وحـده، وانمـا نريـد ان نـدرس حيـاة الـنفس الاسـلامية فـي عصـره، فلـم يكـن لحكـيم المعـرة ان ينفـرد بإظهـار اثـاره الماديـة او المعنويـة، وانمـا الرجـل ومالـه مـن اثـار واطـوار نتيجـة لازمـة وثمـرة ناضـجة لطائفـة مـن العلـل، اشـتركت فـي تـأليف مزاجـه وتصـوير نفسـه، مـن غيـر ان يكـون لـه عليهـا سـيطرة او سـلطان، مـن هـذه العلـل المـادي والمعنـوي، ومنهـا مـا لـيس للإنسـان بـه صـلة، ومـا بينـه وبـين الانسـان اتصـال، فاعتـدال الجـو وصـفاؤه ورقـة المـاء وعذوبتـه وخصـب الارض وجمـال الربـي ونقـاء الشـمس وبهاؤهـا، كـل هـذه علـل ماديـة، تشـترك مـع غيرهـا فـي تكـوين الرجـل وتنشـئ نفسـه، بـل فـي الهامـه مـا يعـن لـه مـن الخـواطر والاراء، وكـذلك ظلـم الحكومـة وجورهـا، وجهـل الامـة وجمودهـا، وشـدة الاداب الموروثـة وخشـونتها، كـل هـذه او نقائضـها تعمـل فـي تكـوين الانسـان عمـل تلـك العلـل السـابقة، والخطـأ كـل الخطـأ ان ننظـر الـى الانسـان نظرنـا الـى الشـيء المسـتقل عمـا قبلـه ومـا بعـده، ذلـك الـذي لا يتصـل بشـيء ممـا حولـه، ولا يتـأثر بشـيء ممـا سـبقه او احـاط بـه، ذلـك خطـأ، لان الكـائن المسـتقل هـذا الاسـتقلال لا عهـد لـه بهذا العالم.

انمـا يـأتلف هـذا العـالم مـن اشـياء يتصـل بعضـها بـبعض ويـؤثر بعضـها فـي بعـض... واذا صـح هـذا كلـه، فـأبو العـلاء ثمـرة مـن ثمـرات عصـره، قـد عمـل فـي انضـاجها الزمـان والمكـان والحـال السياسـية والاجتماعيـة والحالـة الاقتصـادية... فـالمؤرخ الـذي لا يـؤمن بالمـذاهب الحديثـة، ولا يصـطنع فـي البحـث طرائقـه الطريفـة، ولا يرضـى ان يعتـرف بمـا بـين اجـزاء العـالم مـن الاتصـال المحتـوم، ولا ان يسـلم بـان الشـيء الواحـد علـى صـغره وضـالته انمـا هـو الصـورة لمـا اوجـده مـن العلـل، ولا يطمـئن الـى ان الحركـة التاريخيـة جبريـة لـيس للاختيـار فيهـا مكـان، المـؤرخ القـديم الـذي يـرفض هـذا كلـه، ولا يميـل اليـه، ملـزم مـع ذلـك ان يبحـث عـن حيـاة الامـة الاسـلامية، اذا بحـث عـن حيـاة ابـي العـلاء فانـه ان لـم يفعـل ذلـك، اسـتحال عليـه ان يفهم الرجل او يهتدي من امره الى شيء(.

مـن اجـل ذلـك خصـص طـه حسـين بابـاً شـغل حيـزاً كبيـراً مـن الكتـاب (نحـو ثلثـي الكتـاب)، درس فيـه زمـان ابـي العـلاء ومكانـه وشـعبه والحيـاة السياسـية والاجتماعيـة والاقتصـادية والدينيـة فـي عصـره، وقبيلتـه واسرته، ليرى اثر ذلك كله في شعره وادبه.

المصدر:

-اندرية ريشارد:النقد الفني، ترجمة صباح الجهيم،وزارة الثقافة والارشاد القومي،دمشق١٩٧٩.